المحاضرة الرابعة: المدرسة السلافية

اشتد اهتمام المفكرين الروس بالفلسفة والتاريخ والعلوم السياسية والنقد الأدبي، ومع انتشار النظرية الماركسية في دول الاتحاد السوفياتي وفي دول أوروبا الشرقية أدى هذا إلى تشكل نسق ثقافي جديد.

حيث أن النظرية الماركسية هي في الأساس نظرية في الاقتصاد السياسي وضعها كارل ماركس تقوم على أن الأفراد في المجتمع الإنساني يدخلون في علاقات إنتاجية وأن مجموع هذه العلاقات الإنتاجية يشكل البنية الاقتصادية للمجتمع. أما الأدب فشأنه شأن أنماط الحياة العقلية الأخرى خاضع للقوى الاقتصادية والأيديولوجية وليس له قيمة فنية جوهرية، وإنما هو نشاط لا ينفصل عن المجتمع وأنه يعد إحدى أدوات التعبير الاجتماعي التي تعكس المجتمع بما فيه يتطور ويتغير بتطور وتغير المجتمع.

1. التعريف بالمدرسة السلافية

تأخر ظهور الأدب المقارن في الاتحاد السوفياتي إلى النصف الثاني من القرن العشرين فكان محتقرا بل وممنوعا في المرحل الستالينية لأنه عد من الفنون البرجوازية التي لا يجب أن تمارس في دولة اشتراكية. أسس هذا الاتجاه فكتور جيرومنسكي.

اختلف في وجه تسمية المدرسة من أديب إلى آخر بسبب إرجاعهم إياها إلى مصادر مختلفة فبعضهم ينظر إليها من جانب لغوي وبعضهم يراعي فيها النظام السياسي أو الاقتصادي أو الفلسفي وآخرون يهتمون بجانبها الجغرافي، حيث نعتت هذه المدرسة بالسلافية إنما كان نسبة إلى اللغات السلافية والشعوب الناطقة بها في بلدان المعسكر الاشتركي، أما نعتها بالاشتراكية والماركسية فمرده إلى النظام السياسي والاقتصادي الذي ساد مجتمعات هذه البلدان فطبع مختلف وجوه حياة هذه المجتمعات بما فيها إنتاجها الأدبي والفني والتفكير في هذا الإنتاج.

تشتغل المدرسة السلافية بنهج يستند إلى مرتكزات كل من المدرستين الفرنسية والأمريكية، إلا أن المدرسة الفرنسية مدرسة تاريخية والمدرسة الأمريكية مدرسة جمالية، في حين المدرسة السلافية مدرسة مبنية على دعامتين: فلسفية وعلمية. حيث ينطلق ممثلوها من النظرية الماركسية القائلة أن الأدب جزء من البناء الفوقي للمجتمع وهو بناء أيديولوجي تقابله قاعدة أو بناء تحتي اقتصادي اجتماعي يربطه الأول تأثير متبادل أو علاقة جدلية يكون الدور الأكبر للبناء التحتي وذلك وفقا للمقولة الماركسية الشهيرة:"الوجود المادي يحدد الوعي الاجتماعي"، أي أن الواقع الاقتصادي والاجتماعي يتحكم في الإنتاج الأدبي ويحدد شكله ومضامينه، وعندما يكون مجتمعان على درجتين

متقاربتين من التطور فإن ذلك يؤدي إلى ظهور أوجه تشابه كبيرة بين أدبيهما حتى إذا لم تقم بين هذين الأدبين علاقة تأثير وتأثر.

2. الأدب المقارن في المدرسة السلافية:

هو النظر إلى الأدب نظرة شمولية، تتمثل في علاقة الأدب بالظروف الاقتصادية والاجتماعية التي انتجته.

3. رواد المدرسة السلافية

بعد المرحلة الستالينية حدث انفتاح نسبي في الثقافة والأدب أفاد منه الأدب المقارن جزئيا إذ افتتح قسم للأدب المقارن في معهد الأدب الروسي في لينغراد كما نشطت بعض الأبحاث في دول أوروبا الشرقية إلا أنه ظلت المكتبة السوفيتية ومكتبة لغات أوروبا الشرقية شديدة الفقر في عناوين الأدب المقارن وفي الستينيات ظهر انفراج نوعي نسبي في حقل الأدب المقارن ونشطت محاولات لجمع شمل المقارنين الاشتراكيين.

فظهر مقارنون لامعون يتمتعون بدرجة عالية من الكفاءة كالروماني مارينو والتشيكي دوريشين والروسي فيكتور جيرمونسكي فقد تألق هؤلاء المقارنون في مؤتمرات الرابطة الدولية للأدب المقارن وترجمت مؤلفاتهم إلى لغات أجنبية كثيرة.

4. خصائص المدرسة السلافية

1.مع أن الماركسية تلتقي مع الاتجاه الفرنسي في الميل إلى التاريخ إلا أنها تختلف عنه في الأهداف والنتائج، لأن الاتجاه الفرنسي يستعين بالمنهج التاريخي لإثبات تأثير أو تأثر الأدب القومي بمعزل عن القوانين المتحكمة في تطوره، بينما يستخدم الماركسيون المنهج التاريخي لإثبات دور المجتمع والصراع الطبقي في تشكيل الأدب وظهور أجناسه، أي دراسة التشابهات الناتجة عن تشابه الظروف الاجتماعية في عدد من القوميات وهذا لا يعني أنهم يهملون دراسة التأثير لكنهم يرون أن ظهور تشابه ما كما يقول جيرمونسكي في آداب لا صلات بينها يدل عل أن التشابهات لا تكون دوما ناتجة عن التأثر وإنما تخضع لحاجة المجتمع وظروفه فالتأثير والتشابه ينتجان عن تشابه الظروف الاجتماعية المحيطة بالآداب القومية.

2.اهتمامها بالصلات العميقة بين البلدان العربية وإيران مع روسيا والدول السلافية ولا سيما فيما يخص شخصية الرسول وتأثير القرآن في الشعر الروسي.

3.ينطلق المقارنون في هذه المدرسة من الموضوعية الماركسية التي ترى أن الواقع الاقتصادي والاجتماعي يتحكم في إنتاج الأدب ويحدد أشكاله ومضامينه فهو الذي يزوده بالمادة والموضوعات.

4.لقد دخلت الدراسات المقارنة في الغرب من خلال النظر في آفاق تطور الأدب العالمي، وحصرت نفسها في ميدان البحث داخل الحدود القومية الضيقة أو في الأعمال الأوروبية، والاعتناء بالآداب الحديثة لذلك كان اشتغال المدرسة السلافية في منطقة غير مأهولة ومقصاة من قبل الاهتمام الغربي، فدرس باحثوها آداب العصور الوسطى في الآداب الشرقية والأوروبية ودراسة الآداب الشعبية بعد أن كانت مهملة فخرجت الدراسة إلى ما وراء أطر الآداب القومية.

5.رفضت المدرسة السلافية توسعة ميادين البحث المقارن لتشمل مقارنة الأدب بجميع أشكال الثقافة والمعارف والعلوم، وفق ما اقترحته المدرسة الأمريكية فإن ذلك من شأنه أن يحول الأدب المقارن إلى علم عام وإلى ثقافة فلسفية مقارنة وهو أمر سيضاعف من صعوبة البحث المقارن.

6.الخروج على الفلسفة الوضعية التي حكمت الطريقة الفرنسية في الدرس المقارن، وحولته إلى بحث تاريخي يقوم على العلاقة السببية والدلائل الملموسة على العلاقة بين الآداب القومية المختلفة التي جمعت بينها مقولة التأثير واعتماد الفلسفة المادية الجدلية في النظر إلى مختلف الآداب القومية ضمن سياق أوسع من آداب العالم شرقه وغربه وشماله وجنوبه.

7.مناهضة نزعة المركزية الغربية التي سادت ولا تزال سائدة في كثير من أوساط الدارسين المقارنين الغربيين والتي تتمثل في النظرة الدونية إلى سائر آداب العالم كآداب العالم الثالث في إفريقيا وآسيا التي لم تكن لترقى إلى معارج الآداب الأوروبية، لهذا دعا جيرمونسكي إلى ضرورة توسيع دائرة البحث في الأدب المقارن بغرض الوصول إلى نتائج أكثر مصداقية وحقائق أكثر وضوحا وموضوعية.

5. مآخذ المدرسة السلافية

وجهت بعض الانتقادات لهذه المدرسة وأبرز ما يؤخذ عليها:

1. **أن البحث في وجوه التشابه في البنى التحتية يقود إلى إهمال العمل الأدبي نفسه ويتم التركيز على الوقائع الاجتماعية والاقتصادية في البلدين أكثر من التركيز عل العمل الأدبي وبيان ميزاته الفنية والمضمونية والإشارة إلى القضايا الجمالية.**

2. **لم ينجح المقارنون الماركسيون في مهمتهم لهذا بدت جهودهم تسير تارة في الاتجاه الفرنسي، وتارة في الاتجاه الأمريكي.**
3. **أهملت شخصية الأديب وفرديته وعبقريته.**

في الأخير يمكن أن نقول تبقى المدرسة السلافية إحدى المحاولات النافعة في الأدب المقارن، تسعى لتوسيع دائرة الأدب المقارن، ومنازعة النهضة الأورو_أمريكية المتمركزة نحو الذات.